التاريخ فى سير أبطاله

أحمد عرابى

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصرى الفلاح
وأن يعيد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

للأستاذ محمود الخفيف

ولست أدرى كيف كان يطمع بلنت فى أن يقنع فلادستون بالعطف على قضية الأحرار فى مصر ، وقد كان رجال السياسة فى انجلترة يسعون ما وسعهم السعى إلى الاستيلاء على مصر منذ أن التقى البحران ، وهو انجليزى لا تخفى عليه نيات الإنجليز وأساليبهم تجاه الشعوب الشرقية ؟

إنى أفهم أن تجوز ألاعيب السياسة الإنجليزية على أولئك الأنفال من أهل الشرق الذين أذهلهم ما هدهم من ضعف عن الحقائق فصدقوا الباطل وهم يجهلون ، أو الذين غرتهم بأوطانهم زخارف العيش ووساوس النفس فاشتروا فى الباطل وهم يعلمون ؛ أما أن تجوز الأباطيل على انجليزى عليم بالسياسة وأوضاعها فهذا ما لا أفهمه ، ولذلك فلولا ما تأكد لدى من إخلاص مستر بلنت

(*) صورة زيتية أخذها أحد الفنانين الأجانب لعرابى سنة الثورة ولد أحدهما إلى المستر بروول صاحبه وعليها إمضاؤه

لقضية الوطنيين حتى قضى الاحتلال فيها قضاءه لارتبت فى نياته كما أرتاب فى نيات الساسة من أهل بلاده أبداً .

وكأن القدر يأبى إلا أن يظهر بين حين وآخر من الإنجليز أنفسهم من لا تطغى على ضمائرهم خدع السياسة ، أو يشوه الجانب الإنسانى من نفوسهم أوضار العيش ، فيكون من هؤلاء حجة على المرائين الماكرين من بنى قومهم ، ويكونون بينهم شهوداً من أعلمهم عليهم تنبعث أصواتهم مجلجلة فتملأ أسماع أولئك الساسة الذين يوصدون أسماعهم دون أصوات الشعوب المغلوبة على أمرها مهما بلغ من قوة انبعاثها ؛ ومن هؤلاء الأحرار روتستين وبلنت ومن حذا حذوهما .

قدر على شريف أن يلاقى عنتاً شديداً من مسلك الخديو من أول الأمر ! وأخذت وزارته تشق طريقها فى حذر شديد بين تلك الصعاب القائمة ، وكان أعظمها دسائس الأجانب وتوثبهم فى ذلك الوقت ، ولقد هال هؤلاء الأجانب انبعاث الروح الوطنية إذ رأوا فيها بوادر القضاء على ما يمنون به أنفسهم فى مصر .

وسارت سفينة الحكم بين هذه التيارات المختلفة ، تنكر الخديو لقضية الحرية ونشاط المدافعين عن هذه القضية ، وتربص الدولتين بالحركة جميعاً .

كان طبيعياً أن تفيق البلاد على صيحة عرابى ، وأن تنطلق النفوس من عقالها ، فلقد أتيح للناس قدر من الحرية وهم إليها عطاش تتحرق نفوسهم ؛ فبدأ الوطنيون يعبرون عما احتبس فى صدورهم منذ عزل إسماعيل ، وعادت الصحف تعبر عن مساوئ التدخل الأوروبى وتندد بأساليب الدخلاء فى مصر الذين سلبوها أقواتها بالحيلة وحالوا بينها وبين أمانيها زمناً بالأرهاب والبطش ؛ والذين كان يحتل الكثيرون منهم الوظائف المصرية الخطيرة ويؤجرون على أعمالهم فيها إن كان تحتلهم فيها من أعمال أجوراً غالية من خزانة مصر الفقيرة .

وأخذت جريدة الطيف ، وكان يصدرها عبدالله نديم ، تقاوم الهرج الزائف الذى بدأ يلتمع فى مصر فيخطف سرابه أبصار الجاهلين ، والذى سماه الأوروبيون مدنية ليكون لهم منه سلاح من طراز آخر يضيفونه إلى أسلحة الدس والكيد التى سلطوها على البلاد ؛ وحمل الكرام الكاتبون على المراقص وحانات الخمور ودور المجون ومواخير الدعارة وتيرها من سيئات الطرق التى كان يذيعها فى مصر أولئك الذين جعلوا من مبررات تدخلهم فى شئون البلاد رغبتهم فى هداية أهلها إلى المدنية !

وكان بيت عرابي قبل أن يبين في منصبه الجديد مقصد الناس من جميع الطبقات والهيئات الوطنيون والأجانب في ذلك سواء ؛ وكانت شهرة عرابي تطغى على شهرة جميع الرجال من حوله حتى البارودي وشريف وكان لهما الحكم والجاه ؛ والحق لقد اتجهت الأنظار إلى عرابي منذ يوم عابدين وأصبح من المستحيل أن يعتزل السياسة أو تعتزله السياسة ، وقد خطا في سبيلها تلك الخطوة الجريئة التي كان النجاح طفيفها

أخذنا على عرابي أنه حينما طلب إليه أن يخرج من القاهرة بفرقته اشترط أن يكون ذلك بعد صدور أمر الخديو بدعوة مجلس شورى النواب ، ونعود فنأخذ عليه أنه تدخل في الأساس الذي يجتمع عليه المجلس . فكان شريف يرى أن يكون ذلك وفق لائحة عام ١٨٦٦ ، أي أول لائحة للمجلس على أن يقوم المجلس بالتعاون مع مجلس الوزراء بوضع لائحة جديدة تجعل منه مجلساً نيابياً يلائم حال البلاد ؛ وبعد معارضة شديدة وافق عرابي على ذلك

ثم تدخل عرابي في مسألة أخرى وهي الميزانية المخصصة للإبقاء الجيش ثمانية عشر ألفاً من الجند ، فلقد أبدت المراقبة المالية عدم موافقتها على المبلغ اللازم كله ، وبعد أخذ ورد وافق عرابي على ما تيسر دفعه من هذا المبلغ على أن يقوم بتوفير الباقي من وجوه أخرى .

لقد قطع عرابي على نفسه عهداً كما أسلفنا ألا يتدخل في شؤون الحكومة القائمة وعلى هذا الأساس قبل شريف رياسة الوزارة ؛ لذلك نرى أن تدخل عرابي في الأمور التي ذكرناها يوجب ملامته ولن يشفع له أنه كان يطلب الخير ولن يخفف من اللوم عليه أنه رضي آخر الأمر ولم يسبب للحكومة عنتاً ، فهذه الأمور من اختصاص الحكومة وهي لن تمس كما نرى جوهر قضية البلاد

لم يبن أعداء هذه الحركة الوليدة عن مناوءتها في مصر وخارج مصر ؛ وإلى هذه المناوءة يرجع سبب جموح هذه الحركة والتوائها على شريف ثم خروجها آخر الأمر من يده ، ولو أنه قدر لمصر في تلك الأيام العصيبة أن آزر الخديو كبير وزرائه ضد الدسائس التي كانت تحاك للبلاد لأمكن شريف أن يسير بالسفينة إلى شاطئ السلامة ، ولكن الخديو وا أسفاه لم يكتف بعدم المؤازرة بل لقد التجأ إلى الأجانب فكان هذا العمل من جانبه أقوى مساعد على نجاح سياستهم ...

وكان أوكلند كلفن العضو الإنجليزي في لجنة المراقبة المالية ، وإدوارد مالت قنصل انجلترة في مصر هما اللذان يحكمان الشباك حول الخديو ، ولقد كانت لهما سياسة ماهرة غادرة تدور على أسس أحكم وضعها أولهما وفق ما تعلم في الهند ؛ فهما يظهران الولاء للخديو فيدسان له بذلك السم في الملق ، ثم هما يخوفانه أبداً من تركيا والعرابيين جميعاً فيذران قلبه هواءاً ، وهما بعد ذلك يضللان الرأي العام في بلادهما ويرسلان التقارير السرية بما يجب أن يتبع إلى وزير الخارجية

وكانت وسيلتهما في تضليل ذلك الرأي العام ؛ السيطرة على الصحف بالسيطرة على مراسليها ، وكان كلفن نفسه مراسلاً لإحدى الصحف الهامة ، وكان مراسل التيمس يعتمد عليه في استقاء المعلومات ، أما شركتا روتر وهافاس فقد كان يعطى لكل منهما ألف جنيه في العام من خزانة مصر ! وقل أن تصادف في تاريخ السياسة عملاً أشد فجوراً من أن تحارب قضية شعب بنقود من خزانته !

وكانت الحركة الوطنية تلاقي أبلغ الكيد خارج مصر من جانب الصحافة أول الأمر ، إلى أن منيت بعد ذلك بالتدخل الرسمي الفاجر ، الذي لم يدع في تاريخ العالم عرفاً إلا خرج عليه ، ولا قاعدة إلا سخر منها وحطمها تحطيماً .

أخذ عرروا الصحف في انجلترة وفرنسا يندون بثورة مصر ويسخرون من نهضة مصر ، ولو أنهم كانوا يحترمون أنفسهم حقاً ، أو يحترمون المبادىء التي نادت بها بلادهما لنعمهم ذلك عما فعلوه ...

وما ذا جنت مصر يومئذ حتى تستقبل أوربا حركتها بأسوأ ما تستقبل به الحركات ؟ ألم تجر في أوربا الدماء في سبيل تلك المبادىء التي كان ينادي بها المصريون ؟ وكيف تكون نهايتها عذبة مشتهاة إذا تغنى بها أحل تلك الشعوب ، ثم تكون ممجوجة ممقوتة إذا هتف بها الشرقيون ؟

هذا شعب ينفض عنه غبار القرون ، ويخطو نحو الحرية كما خطت أوربا ، ثم هو يذب الأجانب عن قوميته ، وقد ثقلوا عليها بامتيازاتهم الأثيمة الظالمة مثل الحشرات والهوام ، فماذا كانت ترى أوربا في هذا من معاني النبل والمدنية ؟ ثم يصحب حركة المصريين عدوان على أولئك الأجانب على ما كانوا يلاقونه منهم من عنت وإفساد ؟ ألا إنها السياسة تقلب عرف الناس نكراً ، وتجعل المبادىء التي ينادي بها دعاة الإنسانية في نظر

السياسة أحلاماً لا تجد لها مستقراً إلا فى رؤوس الحمق من الفلاسفة ورؤوس الأغبار من مصدقيهم .

أما السياسة فقد كانوا لا يتوانون عن الكيد ، ولا يفتر لهم سعى فى تلمس السبيل التى يستترون بها على الفريسة ، وكان موقف انجلترة وفرنسا من مصر ينطوى على كثير من المعانى التى تبعث على الألم والضحك معاً ، وكم من المآسى ما تضحك منه النفوس ولكنه ضحك المرارة التى لن يبلغ الدمع مبلغها

كان موقف الدولتين كموقف رجلين يطمعان فى استلاب شىء وكل منهما يريده لنفسه دون الآخر ولكنه يموه على صاحبه ، وكل من الرجلين يفهم حق الفهم أن الآخر يدرك حقيقة موقفه منه ، ولكنهما على الرغم من ذلك يتغابيان ويضللان !

هذا هو موقف الدولتين على مسرح السياسة فى تلك الأيام ، ولكم شهد المتفرجون يومئذ من الأساليب الميكيافيلية وأوضاعها ، ولكم شهدوا من أساليب غيرها لو قرنت بها الأولى لكانت منها كالحسنات ، ثم يسدل الستار والمتفرجون من أهل مصر لا يملكون أن ينطقوا بكلمة استهجان لما رأوا ، بل لقد فرض عليهم أن يتظموا عقود المدح وإلا عد سكوتهم جحوداً وعناداً ، وأى شىء أوجع وأنكى من أن يرغم شعب على تقبيل الأيدى التى استلبته حقوقه والأغلال التى دارت حول عنقه

ويظهر أول شاهد على السياسة الإنجليزية فى تقرير كتبه كلفن بعد الثورة بعشرة أيام جاء فيه : « أرى أن ليست الحال الحاضرة بطبيعتها إلا هدنة ، وأن ما وصلنا إليه من التسوية ليعطينا مهلة نستجم فيها ونلم فيها بالقوى التى تعمل حولنا ونسعى فى الاستفادة منها أو القضاء عليها »[1]

وليس فى هذه العبارة أول شاهد على السياسة الإنجليزية فحسب ، بل إن فيها ملخص تلك السياسة ؛ فستتربص انجلترة للحركة حتى يحين الوقت وحتى تستطيع أن تعمل بمفردها دون فرنسا ...

وكان شريف يقظاً يفطن إلى دقة الموقف ويدرك مرامى السياسة الإنجليزية وأساليبها ؛ ولذلك كان لا يفتأ يحض أنصار الحركة الوطنية على اتباع الحكمة ومجانبة الشطط حتى لا يكون من أعمالهم أو أقوالهم ما قد يسىء أوروبا فتسوء بذلك العاقبة

وأخذ العقلاء من رجال الحركة الوطنية يعاونون شريفا على تثبيت قواعد سياسته ، وكان من أثر ذلك أن تنازل عرابى عن رأيه فى الموفقين السالف ذكرها ، وكان من أثره أيضاً أن خففت الصحف من لهجتها وكفكفت من غلوائها ؛ ولقد كان للامام محمد عبده فضل كبير فى توجيه العناصر الوطنية نحو هذا المسلك الحكيم ...

ولكن الأفق ما لبث أن تجمعت فى حواشيه الغيوم وأحست السفينة بوادر عاصفة قوية ما عتمت أن هبت شديدة عاتية نفد لها صبر الربان أو كاد ، وتلك هى أزمة الميزانية الشهيرة .

فرغ شريف من إعداد اللائحة الجديدة للمجلس النيابى ثم عرضها على النواب ؛ وشد ما كانت دهشتهم أن رأوا شريف يقرر فيها ألا يكون من اختصاص المجلس عند النظر فى الميزانية البحث فى جزية الباب العالى والدين العام ، وكل ما فرضه قانون التصفية على الخزانة من نفقات .

وهال النواب وأغضبهم أن يكون ذلك باتفاق شريف مع المراقبين ، فرفضوا ذلك وأصروا على أن ينظروا الميزانية كاملة ، واعتبروا ذلك من الحقوق التى لا تقبل مساومة مهما يكن من الأمر

وأخذ شريف المسألة من الناحية العملية ، فلم يشايع النواب فى نظرياتهم ، وأخذ يطلب إليهم الأناة والحذر ويريهم عاقبة التطرف والتعجل ، ولكنهم لم يلتفتوا إليه ، وظهرت فى الوزارة نفسها بوادر التفكك . فلقد كان البارودى يطمع فى الحكم بعد شريف فكان لذلك يشجع الوطنيين فى موقفهم سراً .

وكان سلطان باشا رئيس المجلس ينقم على شريف أن لم يسلكه فى سلك وزارته فوجد فى الخلاف القائم فرصة ينال بها من شريف فسرعان ما اتهم شريف بالاعتدال ، ثم حمل اعتداله على الجبن والضعف ... ثم بلغ الأمر إلى اتهامه بالخيانة

ووقف الربان يواجه العاصفة فى صبر وجلد ، وهو يؤمل أن يجنح النواب إلى السلام والاعتدال ، ونشط الشيخ محمد عبده فى معاونة شريف ، ومما ذكره فى هذا الصدد قوله : « لقد ظللنا ننتظر حربنا مئات السنين ، أفيصعب علينا أن ننتظرها بضعة شهور أخرى ؟ »

ثم بدى على الأفق بعد حين ما يبشر بقرب انكشاف الغمة ! فلقد أخذ النواب يتدبرون عاقبة هذا التشدد ، وبدأ العقل يتغلب شيئاً فشيئاً على العاطفة .

« يتبع »

العقيف

(١) المسألة المصرية لروشين نقلا عن عرابى وبدران